

## الفصل الثالث

### تأثير المدرسة

تفشل المدارس في تعليم أطفالها التطابق الناجح والمحافظة عليه من خلال الطرق الضرورية للمسئولية الاجتماعية وتقدير الذات ، فالمسئولية الاجتماعية ( الحب في موقف المدرسة ) تناقش باسهاب في فصول تالية ، ولكنها تذكر هنا باقتضاب : إن دور المدرسة في تعليم الأطفال وفي تزويدهم بالمعرفة والأدوات الضرورية للنجاح في مجتمعنا هو الذي يعيننا الآن ؛ ولما كان قد طلب إلى أن أعمل مع الأطفال الذين عجزوا عن التطابق المستفاد من مشكلاتهم السلوكية وفشلهم التربوي . فقد أدركت لتوى الصعوبة التي تنطوي عليها مساعدتي إياهم .. لقد كان العمل صعبا ، وربما مستحيلا ، لأن الفلسفة الجارية في التربية التي تؤكد الفشل ، تمنع التلاميذ من إظهار الشعور بتقدير الذات ، ولكي نفهم ما حدث ، يتعين علينا فحص الطفل قبل أن يأتي إلى المدرسة ونتبعه خلال أعوامه الأولى في التعليم الرسمي .

يبدأ التعليم منذ الولادة . ويستمر طوال حياتنا ، وقد طورت المدرسة ، وبخاصة المدرسة الأولية ، لتوحيد مقياس التربية خلال السنوات الباكورة ، ويتعلم الطفل في السنوات القليلة السابقة على المدرسة شيئا كثيراً عن الحياة ، فإذا أدخلنا في اعتبارنا أنه يكون ضعيفاً عند الولادة ، فانه يكون شخصاً قادراً بدرجة معقولة عندما يدخل روضة الأطفال ، إذ يكون قد عرف كثيراً عن العالم ، ويشعر عادة أنه يستطيع أن يكافحه ؛ ومهما كانت بيئته فهو متفائل بمستقبله ، ويأتي إلى المدرسة عدد قليل جداً من الأطفال الفاشلين ،

وليس بين من يأتون إليها من يتميز بالفشل « إنها المدرسة ، والمدرسة وحدها هي التي تسجل على الأطفال بطاقة الفشل » ولدى معظمهم مطابقة ناجحة بصرف النظر عن بيوتهم أو بيئاتهم ، وهم يتوقعون الحصول على الإدراك في المدرسة ، ويأملون بثقة الأطفال أيضاً في الحصول على حب واحترام مدرسيهم وزملاء الفصل ، فتحطيم هذا المظهر المتفائل هو أخطر مشكلة بالمدارس الأولية . ومهما كانت خلفية الأطفال ، فانهم يأتون إلى المدرسة بقبالية فائقة لتقبل التعليم <sup>(١)</sup> ، فاذا فشلوا إذن في مواصلة التعلم وفق معدلهم السريع السابق ، فانا نعود باللائمة إن شئنا على عائلاتهم أو بيئتهم أو فقرهم ، إلا أننا نكون أكثر حكمة لو عدنا باللائمة على تجربتهم في المدرسة ، ولو أدخلنا في حسابنا الاهتمام العظيم بالمدرسة والتربية وعرفنا أن المدرسة بالنسبة لمعظم الأطفال الصغار هي الجانب الوحيد من عالمهم الموجود منذ البداية لأجلهم ، فاننا نرى أن المدرسة لا بد أن تكون الجزء الهام إلى أقصى حد في حياتهم ، وهي كذلك بالفعل ، فاذا فشلت المدرسة في القيام بالوظيفة التي يجب القيام بها ، فينبغي لنا ألا نبحث عن كباش فداء في البيئة ، بل يجب أن نصلح المدرسة ، فكثير من المدرسين الذين يعملون مع الأطفال من ذوي « الجذور الاجتماعية المحرومة » يعتقدون أن « السنوات الأولى من المدرسة سنوات حرجة بالنسبة للنجاح أو الفشل » وأنا أوافق كل الموافقة ، لا فيما يتعلق بالأطفال المحرومين وحسب ، بل بالنسبة لجميع الأطفال .

إن الطفل الذي كان يؤدي عمله بصورة مرضية طوال خمس سنوات ، يكون على ثقة من أنه سيستمر كذلك في المدرسة ، وهذه الثقة في تجربة كثير منا ممن يعملون في المدارس ، قد تضعف ، ولكنها تظل فعالة لمدة خمس سنوات أخرى تقريبا ، بصرف النظر عن عدم كفاية تجربته المدرسية ،

(١) الدكتور إليوت شابيرو ، رئيس مدرسة أولية بمنطقة هارلم الفقيرة في نيويورك ستى، واكتشف صحة هذا القول ، وقد وصف عمله وصفاً مشيراً في كتابنا: **Our Children Are Dying** ، بقلم نات هنتوف فيكج سنة ١٩٦٦ .

ومع ذلك فاذا عانى من الفشل المدرسى إبان هذه السنوات الخمس ( من سن الخامسة إلى العاشرة ) فإنه حين يناهز العاشرة تنهار ثقته ويتحطم حافزه ويأخذ في التطابق مع الفشل ؛ وإذا ما اقتنع بعدم قدرته على إشباع حاجاته عن طريق استخدام عقله استخداماً منطقياً ، فإنه يرجع إلى سلوكه الذى توجهه عواطفه ، السلوك الذى تعلم تجنبه حين كان ناجحاً فى الماضى ، ويهجر طريق الحب وتقدير الذات ، ويتحسس عشوائياً الطريق الذى يبدو له وكأنه الوحيد الذى ترك مفتوحاً أمامه .. طريق الجنوح والانسحاب . ومع أن النجاح فى المدرسة لا يزال ممكناً إلا أنه يصبح فى كل سنة تالية أكثر صعوبة وأقل احتمالاً ، والعدد الذى يعيد الكرة قرب نهاية المدرسة الثانوية والكلية الصغرى Junior college أو High school أو فى المدرسة الليلية ، أو بعد الخدمة فى القوات المسلحة ، ليس بالعدد الكافى الذى يحدث اختلافاً كبيراً .

إن مدرسة فتورا ذات الخمسمائة فتاة ، التى تضم عدداً من الموظفين السيكولوجيين على درجة عالية من التدريب يعادل تقريباً نظام مدرسة لوس أنجلوس برمته ، مع عضو من هيئة التدريس لكل فتاتين ، وتبلغ نفقات الفتاة الواحدة ١٨ دولاراً يومياً . ( لا يحسب بينها الـ ١٠ ملايين من الدولارات التى تنفق على المؤسسة ) ، وتستطيع هذه المدرسة إعادة تأهيل ٦٠ إلى ٧٠ فى المائة من فتياتها قضى معظمهن عشر سنوات على الأقل فى فشل متواصل ، وتستطيع قليلات منهن أن تتذكر أية تجربة مدرسية تبعث على الرضا ، ولو كانت هذه الفتيات قد مرت بتجربة مدرسة أولية شبيهة بالتجربة الشاملة التى يحصلن عليها فى فتورا ، فإن كثيرات منهن كن ينجحن ، وكان يمكن تجنب عناء شديد ؛ وكان يمكن أن تسهم كثيرات من هذه الفتيات المتألمات فى خير المجتمع بدلا من أن يكن عالة عليه .

إن السنوات الحرجة تقع بين سن الخامسة والعاشرة ، والفشل الذى

يجب منعه خلال فترة الدراسة يمكن تحاشيه إلى أقصى حد في هذا الوقت ،  
و حين يحدث الفشل بالفعل يمكن عادة أن يصحح خلال هذه السنوات  
الخمس في حجرات الدراسة بالمدارس الأولية بواسطة العمليات التعليمية  
والتربوية التي تؤدي إلى إشباع رغبات الطفل الأساسية ، أما السن التي يصعب  
بعدها إبطال الفشل فيمكن أن تكون قبل أو بعد العاشرة فيما يتعلق بأى طفل ،  
ويتوقف هذا على الجماعة التي ينتسب إليها ، وقوة أسرته و ثروته الوراثية  
الخاصة ، ومع ذلك ، فبصرف النظر عن هذه التغيرات ، فإن ما يدهشني  
هو مدى ما يبدو لي من ثبات هذه السن ، فمما قبل العاشرة ، يمكن للتجربة  
المدرسية الجيدة أن تساعد على النجاح ، ويقتضى الأمر شيئاً أكثر من  
التجربة المدرسية الجيدة ، ولسوء الحظ ، فإنه بعد سن العاشرة بقليل يدفع  
به إلى مواقف المدرسة الثانوية حيث تكون فرصته في التجربة التربوية  
المصححة أضيق كثيراً ، ولذلك فإنه بالرغم من إمكان مساعدة الأطفال  
في أى مستوى مدرسي ، فإن الجهود الأكبر يجب أن يبذل في المدارس  
الأولية .

كثيراً ما كتب في المدة الأخيرة عن الحاجة إلى إعداد الأطفال للمدرسة ،  
وبخاصة أولئك الذين ينتسبون إلى عائلات فقيرة ، ويقال إن هؤلاء الأطفال  
تنقصهم القدرة اللفظية ، وأن بيئاتهم البعيدة عن الحياة الفكرية تسبب نماذج  
ضحلة للتعليم ، وأنهم بحاجة إلى إعداد قبل المدرسة لرفعهم إلى مستوى  
الأطفال القادمين من بيئات فكرية أكثر تقدماً قبل مرحلة ما قبل المدرسة ؛  
والبرنامج الخاص بمثل هذه المرحلة السابقة على المدرسة يعرف باسم  
Operation Head Start ففي هذا البرنامج يوجد كثير مما سأدافع عنه  
فيما بعد، في هذا الكتاب ، يطبق بنجاح . ويدخل أطفال برنامج «Operation  
Head Start» المدرسة باستعداد عقلي أفضل من الأطفال القادمين من  
نفس الجيرة ، ومع ذلك ، فمن سوء الحظ ، وكما يتبين من دراسات

البحوث (١) الكثيرة ، أن أطفال هذا البرنامج لم يوفقوا بالمدرسة الأولية النظامية في بعض الحالات مثل الأطفال الذين لم يتلقوا خبرة تحضيرية جيدة قبل المدرسة ، ولربما تكون المدرسة النظامية التي تحدث فيها حالات كثيرة جداً من الفشل ، وقليلة جداً من النجاح ، في حالة تناقض مروع مع برنامج Operation Head Start ، وهو برنامج معد لإعطاء كل طفل فترة ناجحة قبل دخول المدرسة ، والمدرسة النظامية بتوجيهها الفاشل الثقيل ، وتركيزها على الذاكرة دون التفكير ، والتعليم بطريقة الاستظهار ، تزج هؤلاء الأطفال بأشد ما تزج الأطفال الذين لم يحصلوا على هذا التحضير « الجيد » الذي لم يسبق الالتحاق بالمدرسة ، وأطفال برنامج Operation Head Start أعدوا لمدرسة لم توجد بعد ، على عكس الأطفال الآخرين الذين يتقبلون المدرسة كما هي ، ويعملون مثلهم أو أفضل منهم ، أما الأطفال الأقل إتقاناً ، فلهم برنامج شبيه ببرنامج إعداد الجندي للمعركة ، بارساله في عطلة إلى الريفيرا ، ولست أدافع عن الاستغناء بالتحضير للتعليم في فترة ما قبل المدرسة ، بل أؤيد بدلاً من ذلك تغيير المدارس لكي تستفيد من نتائج برامج ما قبل المدرسة ، الممتازة بدلاً من إبطائها .

ما الذي جعل الطفل كثير النجاح وشديد التفاؤل قبل دخوله المدرسة ؟ لقد كان ناجحاً لأنه استخدم عقله في حل المشكلات المتصلة بحياته ، وكان

(١) دراسة ماكس ولف وآني ستين :

**Study 1 : Six Months Later — A Comparison of Children Who Had Head Start, Summer 1965, with Their Classmates in Kindergarten.**

(دراسة حالة لأربع مدارس أولية عامة من رياض الأطفال في نيويورك سى ) ولاية

نيويورك ، جامعة بيشبا ، أغسطس سنة ١٩٦٦ . ودراسة ماري ا. كريدنر ، وماري بيتشي

**An Evaluation of Head Start Preschool Enrichment**

**Programs as They affect the Intellectual Ability, the Social Adjustment, and the Achievement Level of Five year — Old Children in Lincoln, Nebraska.**

لنكولن ، جامعة انبراسكا ، مارس ١٩٦٧ .

متفائلا لأنه كان ينعم بكثير من المرح ، واكتشف أن الحقيقة وإن تكن قاسية ، فانه يستطيع أن يجد وسائل لمكافحتها .. وسائل كانت في معظمها ناجحة . ومع ذلك فأهم من هذا كله أنه حتى إذا فشل لم يكن يسمى فاشلا بطريقة أو بأخرى ، بقسوة أو بود ، وكان يبصر بالوسيلة الأفضل ، وحتى إذا لم يستطع والداه أن يوضحوا بدقة لماذا يريدانه أن يتصرف بطرق معينة ، فان معظم ما يطلب منه عمله كان على الأقل قابلا للفهم إلى حد ما ؛ وكان يمنح فرصاً كثيرة ، ولذلك كان ينجح عادة في آخر المطاف ، ولكنه لم يكن يطالب مطلقا أن ينجح وفقاً لمقاييس زمنية جامدة ، مثل السنوات المدرسية أو نصف السنة الدراسية . وتعلم استخدام عقله في وظيفته الأساسية : أى التفكير . ولا شك أنه كان يبكى ويصرخ ، وتنابه نوبات غضب ، ويرتكب أعمالا طائشة ، ويزعج عدة مرات كل يوم ، ولكنه لم يكن يسير في حياته بطريقة مجافية للعقل (حتى إن بدا كذلك في نظر والديه ) وكان في خارج بيته أقل انفعالا وأكثر تعقلا ، لأنه سرعان ما تعلم أين تكون نوبات الغضب مفيدة ، وأين لا تعود عليه بفائدة .

ويستكشف الأطفال أنهم يجب أن يستخدموا عقولهم في المدرسة لإبداع الحقائق في الذاكرة في الأغلب ، أكثر مما يستخدمونها في اهتماماتهم أو أفكارهم أو حل المشكلات ، والحاجة إليه ليست كبيرة جداً في روضة الأطفال ، ولكنه في الصف الأول ، ويزيد استخدامه باستمرار كل عام أثناء الدراسة في المدرسة الثانوية وحتى في الدراسة بالكلية حتى معهد التخرج في بعض الأحيان ، « التفكير أقل قيمة من الاستظهار لتحقيق النجاح (١) » والتغير المطلوب ، من التفكير إلى الاستظهار يسبب ما يشبه الصدمة للأطفال الذين تعلموا التفكير الناجح ، ويستطيع الكثيرون ، وربما الأغلبية العظمى

---

(١) توجد الاستثناءات من هذه القاعدة في برامجنا العلمية المدرسية ، حيث لا يزال التفكير هو القاعدة ، والاستظهار هو الاستثناء في النوع الخاص بحل المسائل على الأقل .

في الجيرة الغنية الاستمرار بعد هذه الصدمة وتعلم استخدام عقولهم مادامت الذاكرة تسد السبيل، أمام مطلب المدارس لوجود ضغط وتأكيد لعمل ذلك من جانب عائلاتهم ومن بعضهم البعض ، ويكون الأطفال بدون هذا الضغط والتأكيد أكثر رهاقة ، وهي حالة شائعة في المدينة المركزية ، وعندما يطلب إلى هؤلاء الأطفال المرفحين ، الأطفال الذين تقل موازرة الأسرة والجماعة لهم ، استظهار الحقائق ، يفشلون ويواصلون الفشل .

إن الاستظهار سيء كل السوء ، وأسوأ منه أن معظم ما يطلب من الأطفال استظهاره لا علاقة له بعالمهم ، وحيثما يكون ذا علاقة بالموضوع ، فإن العلاقة التي تدرس ، إما أن تكون ضعيفة أو لا وجود لها ألبتة ؛ ويفزع الأطفال للبون المفاجيء ، وهو في نظرهم بون مبهم في السنوات الخمس من حياتهم حين كانوا يستخدمون عقولهم في المرح وفي حل مشكلاتهم الخاصة ، وهي بالضرورة ذات علاقة بحياتهم ، وبين حياتهم المدرسية فيما بعد .

وعندما يكون كثير مما يطلب إليهم غير متصل جزئياً أو كلياً بالعالم من حولهم كما يرونه هم ، مع تزايد تواتره من الصف الأول حتى معهد التخرج ؛ ومن ثمة ، يكون كل من الإصراف في الاستظهار وتزايد تخلخل العلاقة سبباً في التحول إلى الفشل أو الاندفاع نحو الأفعال الجانحة ؛ وسرعان ما يتعلم الأطفال « الناشطون » أن ما هو هام في المدرسة شيء ، وما هو هام في الحياة شيء آخر ؛ ويعيشون هذا الوجود الفصامي على وجه مرض ، ومع ذلك فإن كثيرين لا يفعلون هذا ، وأنا لا أقول بأن كل شيء في المدرسة لا بد أن يكون اتصاله مباشراً وفورياً بالتلميذ وديناه خارج المدرسة ، بل أقول مؤكداً ألا يدرس شيء في المدرسة لا يتعلق بصورة ما بحياة التلميذ « ولكن هذه العلاقة يجب أن تدرس » إذ لا فائدة في أن يطلب إلى الطفل التفكير في شيء عن موضوعات غير متعلقة بحياته ، ولا أن يطلب إليه استظهار حقائق متعلقة بها .

ونحن لا نستطيع افتراض أن الأطفال يعرفون سبب وجودهم بالمدرسة ، وأنهم يفهمون قيمة التربية وتطبيقها عليهم ، ويجب علينا من روضة الأطفال وحتى مدرسة التخرج أن نعلم التلاميذ أو نساعدهم على أن يستكشفوا بأنفسهم علاقة ما يتعلمونه بحياتهم ، ففشلنا في عمل هذا يعد السبب الأكبر في فشل المدرسة .

ولما كان مجتمعنا آخذاً في التعقيد ، فإن فهم الأطفال لهذه العلاقة سيكون أكثر صعوبة ، ونحن نطالبهم بصورة متزايدة بالاعتصام بالثقة ، وأن يتعلموا مادة لا تعنى شيئاً في نظرهم ، وكثيراً ما تعنى القليل في نظر مدرسيهم . ونظراً لتزايد الأعداد في مدارسنا ، ومهما كانت ثقمتهم فيما مضى ، فسوف تتناقص هذه الثقة ، ومع عدم إحلال شيء محلها يصبح الطريق الوحيد هو الفشل . وليست استخدامات عقل التلميذ في التفكير والإبداع والبراعة الفنية والمرح وحدها هي التي تهاوت بقسوة ، بل من المخزن على السواء في هذا الموقف الجماعي القسرى ، أن يكون الجهد المخصص مباشرة لتعليم الأطفال المسؤولية الاجتماعية جهداً ضئيلاً أو لا وجود له على الإطلاق . إن تعلم مساعدة الشخص لآخر تحل المشكلات المعيشية المشتركة ، ومعرفتنا حين تكون هناك صعوبة تربوية ، أننا لسنا وحدنا في هذا العالم ، كل هذه أفكار يربطها بالمدرسة قلة من الناس ، فروضة الأطفال في نظر الكثيرين آخر مكان يقوم فيه تعلم المسؤولية الاجتماعية بأى دور في البرنامج النظامي ، ويتعلم التلاميذ مسؤولية اجتماعية أقل وليس أكثر ، في الوقت الذي تبدو فيه المسؤولية الاجتماعية في فترة انحسار . وحين لا يطلب إلى التلاميذ التفكير في عالمهم الخاص ، وعن كيفية انتسابهم إلى العالم بأكمله ، وحين يكافأون على تذكر ما يعتقدونه ضرورياً وهاماً ، يبدأون الاعتقاد في أن الإجابات الصحيحة إما أن تحل جميع المشكلات ، أو أن المشكلات غير قابلة للحل بوجه عام باستخدام التربية الرسمية ، كما يستكشفون مشكلات أعوص حلا . ومجمل القول « إن التربية الفارقة في المشكلات الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية تنزع فيما يبدو ، إما إلى إنكار وجود هذه المشكلات أمام التلاميذ ، وإما تلمح إلى أنها حلت - وهو تضارب شامل بين الحقائق القوية في أيماننا المضطربة .

إن ميراثنا البيولوجي هو تفكيرنا النوع ، وعقلنا المفكر المبدع ، المتفنن العاطفي ، وميراثنا التاريخي نظام تربوي ظهر في الوجود ويعيش على الزمن بغرض نجاح الفرد ومجتمعه أعظم نجاح في تعلم المهارات والمعرفة المتعلقة بذلك المجتمع في مكان رسمي ووفقاً لمجموعة من القيم التقليدية . ويبدو أن التربية تتحرك في اتجاه مضاد لهدفها التاريخي - التعلم للحياة في عالمنا - بالإضافة إلى ميراثنا البيولوجي - وهو العقل المفكر . وسأبحث في الفصلين التاليين استظهار الحقائق ، وانعدام العلاقة بين التربية والحياة ، لأبين كيف تقوض هذه التطبيقات التربوية نظامنا التربوي ، وتزيد من أعداد الفاشلين ، وتعوق معظم أطفالنا .